

مُدُن إيرانية

هاينز غاوبيه *

أولاً: مقدمة

1-1 الموقع والتكوين: في العام 1960م أعاد L.lockart طبع كتابه: "مدن فارسية" (والذي نُشر من قبل عام 1939م بعنوان: مدن إيران الشهيرة). ويتضمن الكتاب وصفاً بسيطاً لثلاثٍ وعشرين مدينةً إيرانية، وما أسهم ذلك العرض أبداً في فهم الحضرة الإيرانية. وما نزال بعيدين عن فهم العوامل التي حكمت تطور الحواضر الإيرانية. وكنت في العام 1979م قد حاولت مقارنة الموضوع نفسه استناداً لبحوث ميدانية، وقرءات واسعة في المصادر الأدبية (Gaube, 1979م). وبسبب الظروف السياسية آنذاك، ما استطعت توسيع استكشافاتي. ولذلك فسأحاول هنا تتبع تطورات وأشكال المدن الإيرانية التقليدية؛ بمعنى المدينة كما كانت قبل العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، حين اجتاحتها تغييراتٌ غيرت من مظاهرها، كما حدث مع كل المدن في الشرق الأوسط. فبعد المقدمة التي تُعنى بالأوضاع الجغرافية وأوضاع الري في الحواضر، كما بمتغيرات الاستقرار بإيران؛ سأعرض بالدراسة لمدينتين نموذجيتين، تستدعيان بحكم اختلاف الموقع والتاريخ، مقارباتٍ منهجية مختلفة. وسأبدأ في الغرب بأصفهان، حيث يمكن تمييز طبقاتٍ من التطور، وصولاً إلى الخطة الأولى للمدينة، والتي تُظهر الشكل الرائد لهذا النمط من الحواضر. وسيتم التركيز على الحقب ما قبل العهد الصفوي؛ إذ سوف أُعرض للنموذج الصفوي في موقعٍ آخر. ثم أمضي نحو المشرق، إلى هراة في أفغانستان المعاصرة. حيث تمثل هذه المدينة نمط شرق إيران. والواقع أن مقاربتني لن تكون وصفية، بل منهجية. وبعرضي لهذين النموذجين للحضرة الإيرانية، أريد أن أقدم طريقة يتلاقى فيها العمل الميداني مع معلومات المصادر الأدبية.

تتكون إيران من مجالين كبيرين هما الصحارى، والهضاب العادية العالية. وفي مواطن قليلة فقط؛ يجدُ المراقب مستقراتٍ واسعة تغطي مساحاتٍ شاسعة. والبلاد في الواقع جزءٌ من سلاسل الجبال الأوروبية/الآسيوية، والتي تمتد من شبه الجزيرة الأيبيرية، إلى الألب، فالبلقان، وجبال الكربات، وطوروس فالبونت، وإلى الحزام الإيراني المتكوّن من جبال البرس وزاغروس. ثم إن إيران جزءٌ من حزام مستقرات العالم القديم، والتي تمتد من الصحارى في الغرب عبر شبه الجزيرة العربية والهضبة الإيرانية فإلى صحارى آسيا الوسطى في الشرق. وهذان الحزامان واللذان يخترقان العالم القديم، يتفرعان من إيران. وهكذا فالجبال والصحارى هما العاملان اللذان يحدّدان التكوين الإيراني. ومثل الموزاييك، يمتزجان ويتعدّان باستمرار في تشكيلاتٍ متنوعة.

أما أكثرية الشعب الإيراني، فتعيش في واحاتٍ مختلفة الأحجام والأشكال، وفي مستقراتٍ تنتشر على سفوح سلاسل الجبال العالية. بيد أن القسم الأكبر من المستقرات والتي تُعدُّ أكثر من مائة ألف نسمة فتركزُ إمّا على سفوح التلال ضمن الهضبة الإيرانية بين البرس و زاغروس، أو في الوديان التي تكلفها الجبال. وفي الأغلب؛ فإن كل المدن الإيرانية تقع في مناطق لا تكثر فيها الأمطار الموسمية. ولذلك فإن تلك المدن ما كان لها أن توجد وتتمو إلا حيث تتوافر الموارد المائية من مأخذ أخرى غير الأمطار. ففي بعض المدن تأتي المياه من الأنهار. وأبلغ الأمثلة على ذلك بين مجموعة المدن من هذا النوع مدينة أصفهان؛ التي تدينُ بنموها الكبير لاحتياطي المياه المتوافر في نهر "زاينده رود". بيد أن معظم المدن الإيرانية، مثل تلك القائمة في جنوب "البرس" وشرق "زاغروس"، تعتمد على المياه الجوفية، والتي تجلبُ من سفوح التلال والجبال إلى المدن بالقنوات.

أمّا نظامُ القناة فهو عبارةٌ عن مساربٍ محفورة للمياه تحت الأرض. إذ تجمع المياه في بُركٍ بأسفل الجبال العالية، ثم تجلبُ بحسب الموقع وطبيعة الأرض إلى المستقرات الحضرية والحقول. وهذه الطريقة في ابتداع ينابيع صناعية، تعود أصولها إلى حوالي العام 1000 ق.م. أو بعد ذلك بقليل وفي الهضاب الإيرانية والأرمنية. وقد أدى ذلك الاختراع إلى تغييرٍ راديكالي في المستقرات الحضرية إذ فتح للبشر أفقاً وإمكانيات للسكنى والنمو في مناطق غير مزروية في الأصل؛ وكان ذلك أصل الحضرة الإيرانية الكبيرة. وربما تطوّر نظام القناة هذا، الأساس في قيام أول إمبراطورية في تاريخ العالم وهي الإمبراطورية الأخمينية. فقد صار ممكناً بعد ظهور نظام القنوات إقامة طرق طويلة مع محطات للجيش عليها، وكذلك للاتصالات، والإدارة، والضبط والتجارة.

2-1: الأصول:

لقد كان من معالم العمران المدني، إقامة الأسوار من حول المدن، وفي كل الحضارات، وأزمة التاريخ. وقد كان ذلك ضرورياً لحماية المنازل والأعمال بداخل المدينة، كما لحماية ثرواتها. بيد أن المدينة لا تجلب الحماية فقط، بل هي مقر السلطة، ومركز الحياة الثقافية والدينية، ومحور النشاطات الاقتصادية، ومستقر الناس الذين ينهمكون في الأعمال الحضرية. ونتيجة ذلك؛ فإنه بالإضافة للسور، تملك المدينة الحقيقية معبداً، والذي شكل في البداية مقراً للسلطة الدينية والسياسية معاً. ثم حدثت قسمة العمل، فظهر القصر والحصن رمزاً للسلطة السياسية وحدها. أما الحرف والتجارة فتركزت في أحياء خاصة (Weber, 1958, Mumford, 1966).

بدأت التحضر في الهضبة الإيرانية الواسعة، وفي الأقاليم المجاورة إلى الشرق والشمال الشرقي بعد بلاد ما بين النهرين بزمانٍ طويل.

أما في بلاد ما بين النهرين؛ فقد ظهرت المدن في الألف الرابع قبل الميلاد، وكانت لها أسوار، وفيها معابد، ومبانٍ كبرى، ومواطن مخصصة للتجارة والحرف. في حين ظهرت هذه الأمور كلها في إيران والجهات المجاورة إلى الشرق، في العصر البرونزي، أي في

حوالي 2000 ق.م.، وفي تلك المستقرات كانت هناك أسوار، وأماكن مخصصة للحرف والتجارة، لكنها افتقرت إلى الخصائص الأخرى التي عُرفت بها مدن بلاد ما بين النهرين. وقد جرى الكشف الأثري عن تلك المستقرات في فارس وكرمان وسجستان وجنوب تركستان (Tosi, 1977). بيد أن هذا الاستنتاج مبني على الحفريات الناقصة والجزئية التي تمت حتى الآن في تلك الجهات.

في أواخر الألف الثاني، وعلى مشارف الألف الأول ق.م. تحرك الميديون والفرس من الشمال إلى إيران التاريخية. ومنذ ذلك الوقت فقط، يمكننا الحديث عن إيران بالمعنى المتعارف عليه في القرون الأخيرة. وأقدم تمثيلات المدن الإيرانية نعرفها من خلال الألواح الآشورية. لكن من خلال تاريخ هيرودوت (1/96-99) ووصفه "أكباتانا"، همذان الحالية، والتي كانت عاصمة لدولة الميديين، أقدم الدول الإيرانية، نستطيع التعرف على معالم تلك المدينة القديمة؛ يقول هيرودوت: "كان الميديون يسكنون في قرى متناثرة. بيد أن الملك ديوسس (727-675 ق.م) طلب منهم أن يبنوا مدينة كبيرة سُميت أكباتانا، وقد كانت لها أسوار ضخمة، ترتفع في دوائر متداخلة. وكل دائرة ترتفع بمقدارٍ عن الدائرة الأخرى، وعددها في النهاية سبع دوائر. وقد سهّلت الهضاب والتلال المناسبة هذا الشكل من البناء. أما القصر الملكي والخزينة فكانا ضمن الدائرة الأخيرة".

وهكذا فإن هيرودوت يصف أكباتانا باعتبارها مدينةً دائرية. ويذكر لوح آشوري عن مدينة "كيشزيم" الميضية الأوصاف نفسها التي يذكرها هيرودوت، ومن القرن الثامن ق.م. وبذلك نجد سبعة أسوار، يرتفع كل منها أعلى من الآخر، ومن الخارج إلى الداخل، ولنا أن نتوقع أن السور الداخلي الأعلى بينها هو الذي يقوم بإدخاله القصر الملكي. وهكذا فإن القصر وربما المعبد كانا مشيدان في أعلى نقطة في التل الذي تقوم عليه المدينة؛ ويبدو أن ذلك كان من بين الخصائص الرئيسية للمدن الإيرانية الأولى.

وجاء انتصار الإسكندر المقدوني على الأخمينيين لينشر الأفكار الأخرى عن بناء المدن من إيران وإلى الهند. فالمدن التي بناها هو وخلفاؤه في إمبراطوريتهم الشاسعة اتبعت النموذج الجديد. وتُمثل خطط المدن في شمال وشرق إيران مثل هراة وبخارى ذلك النموذج. فهناك وسط للمدينة يلتقي عنده شارعان طويلان متقاطعان. ولا نعرف حتى الآن الأصول الأولى لهذا النموذج. وربما عاد ذلك إلى فكرة الهيبودامين، والتي قد تكون ذات منازع هندية أو صينية. أما خلفاء الإسكندر من السلوقيين، والذين اتبعهم البارثيون الإيرانيون، فقد آثروا بناء المدن المدوّرة. من مثل مدينة "مرو" في تركستان. وقد بنى الإسكندر الأكبر تلك المدينة ثم تهدمت عام 293 ق.م. ثم أعيد بناؤها من جانب أنطيوخوس الأول (280-261 ق.م) على نمط الهيبودامين. وفي الحقبة البارثية أحيطت المدينة بسورٍ شبه دائري. بيد أن أفضل نماذج المدن البارثية الباقية نموذج مدينة الحضر في شمال غرب العراق (Andrae, 1908).

أول المدن الساسانية في إيران، هي مدينة "أردشير خرة"، والتي بناها أردشير

الأول (226-240م) (والمسمّاة فيروز آباد بجانب شيراز)، وقد كانت مدينة دائرية نموذجية. وما يزال الموقع غير مستكشف حتى الآن. وفي وسط المدينة بقايا خرائب ربما كانت آثاراً باقية لمعبد، وتشبهها في ذلك مدينة داراب، والتي لا تبعد كثيراً عن "أردشير خرة"، ولم يجر استكشافها أثرياً أيضاً. والسوران الظاهران للمدينة يدوران حول تكوينين صخريين، وعلى أحدهما بقايا القصر الملكي، وربما كان هناك معبد قائم على المرتفع الصخري الآخر.

وجاء سابور الأول (240-271م) ابن أردشير فبنى عاصمته "بيشابور". وقد تركوا بخبرتهم أثراً ظاهراً في المدينة تمثل في نموذج الهيودامين. كما أنهم أثروا في فن العمارة في عهد سابور. فقد جرى اكتشاف زخارف على المباني والجدران تشبه الموزاييك بأنطاكيه من تلك الفترة، بالإضافة إلى الكتابات والصُور على الجدران والتي تختلف عما كان متعارفاً عليه في زمن أردشير.

وبإيجاز يمكن القول إنه في إيران السابقة على الإسلام، استُخدمت خططٌ مختلفة لبناء المدن: المدن المدوّرة، والهيودرامين، ومع بعض التعديل نمط شرق إيران. والحديث عن الأنماط صعبٌ، لأنّ كثيراً من المُدن الإيرانية القديمة تعرضت للدمار والبناء عدة مرات: بحيث ما عدنا نعرف غير الخطط المتأخرة.

ثانياً: أصفهان:

1-2: التطورات حتى القرن الثامن: اليهودية وجي وكوشنان

تقوم أصفهان على مرتفع يصل إلى 1500م. وهي مدينة تحيط بها الصحارى والسهوب. ولذلك، فإنّ شروط النمو والزراعة تعتمد على الموارد المائية. والمورد المائي لأصفهان هو نهر زاینده-رود، وهو الأغزر بين أنهار إيران الداخلية. ورغم هذا المورد المائي المهم، والموقع الملائم؛ فإنّ ذلك ما كان كافياً لكي تصبح أصفهان رئيسية بين المدن الإيرانية. لقد شكلت مركزاً متوسطاً لتبادل السلع والأفكار بين دمشق وحلب غرباً، وسمرقند وبخارى شرقاً، ضمن العالم الإسلامي. وأهلها ذاك الموقع لكي تصبح عاصمة لإمبراطوريتين كبيرتين في عصور الإسلام: الإمبراطورية السلجوقية (1037-1157م)، والصفوية (1502-1736م). وهاتان الوظيفتان: في الموقع الطبيعي، وفي الدور السياسي (عاصمة)، هما اللتان جعلتا منها من خلال الأسواق، والقصور والمباني الأخرى، ما يشبه فرساي الشرق. ولأنّ بحوثاً أثرية مكثفة لم تجر في موقع المدينة، فلسنا نعرف الكثير حتى اليوم عن موقع غاباي/أسبادانا وحجمها أو شكلها الأول، وهي المدينة السابقة لأصفهان الحالية. وتذكر المصادر اللاحقة للقرون الأخمينية هذه الحاضرة تحت اسم أصفهان (Masquast, 1921.27)، وهو ما يظهر على النقود الساسانية (Golei, 1968). ولا نملك لتطور أصفهان حتى القرن العاشر الميلادي غير المصادر الجغرافية والتاريخية العربية التي دوّنت وقتها وفي الحقب اللاحقة. وبحسب تلك المصادر فإنّ العرب فتحوا المنطقة التي تقع فيها المدينة أواسط القرن السابع. وهناك وجدوا مدينتين:

اليهودية، وجي. ويبدو أن اليهودية هي سالفة المدينة المعروفة بأصفهان. وهناك بقايا مثل التلال والجسر الوسيط على نهر زايانده- رود، والتي تقع على مبعده ثمانية كيلومترات من أصفهان الحالية، وتقف شاهدة على حاضرة جي. وينسب أبو نعيم (أوائل القرن الحادي عشر) تأسيس جي إلى الملك الساساني أبرويز (459-486م) وكسرى الأول (532-579م) أنوشروان. ويفيدنا أبو نعيم أيضاً (تاريخ أصفهان، ص 15) أن جي ما كانت مسكونة دائماً، بل كانت حصناً مسوراً يلجأ إليه سكان المناطق المجاورة في أزمنة الحروب. وبداخل المدينة بنى كسرى أنوشروان بعض العمارات والإنشاءات. ويذكر ابن رُسته، الذي كتب جغرافية حوالي العام 903م وجود قصرٍ قديم في جي. ويقول ابن النديم (الفهرست، ص 240) والذي دوّن كتابه حوالي العام 987م إن مخطوطات بهلوية وُجدت في المدينة. ويعني ذلك أن المدينة ما كانت ملجأً فقط؛ بل كانت لها بعض الوظائف الإدارية أيضاً في زمن الساسانيين. وبعد الفتح العربي، بنى المسلمون مسجدهم الجامع الأول في جي (ما فروخي، ص 42). وقد بُني الجامع في جي وليس في اليهودية لأسبابٍ وظيفيةٍ واستراتيجيةٍ. فبسبب تسويرها واتساعها داخل الأسوار بدت أكثر ملاءمة للاستقرار، وأن تكون معسكراً للجيوش العربية بالمنطقة. وبعد العام 767م بقليلٍ نقل الوالي العربي مقرّه الإداري من جي إلى خوشنان، وهي قرية واقعة بين جي واليهودية. وبتلك القرية بنى الوالي أيوب بن زياد قصرًا يقابله مسجدٌ جامعٌ على نهر فرسان، وهو مجرى مائي ما عاد يمكن تحديد موقعه اليومَ تماماً (أبو نعيم، ص 16). وبالإضافة لهذين المبنيين أمر الوالي الأموي بإنشاء سوقٍ باتجاه اليهودية. وبعد إنشاءات الوالي، بنى كثيرون مساكنهم حوالي ذلك الموقع. وسرعان ما اتصلت المساكن والدور باليهودية. بيد أن المواقع الأخرى التي أنشأها المسلمون تحولت إلى مُدنٍ ومراكز؛ في حين ما استطاعت خوشنان ذلك. فقد كانت اليهودية مزدهرة في تلك الحقبة، بحيث ابتلعت خوشنان. وفي العام 773م جرى إنشاء مسجدٍ جامعٍ ثالثٍ باليهودية في موقع الجامع الحالي لأصفهان (أبو نعيم، ص 17). ويمكن تتبع انتقال العمارة في ما بين جي وخوشنان واليهودية من خلال المسكوكات النقدية. فقد ظهرت مسكوكاتٌ في ما بين 695 و 746م عليها اسمُ جي؛ بينما تحمل كل المسكوكات اللاحقة اسم أصفهان (Walkes, 1956). ويذكر الجغرافيون العرب في القرن العاشر الميلادي جي باعتبارها قرية صغيرة، دون أن يذكروا شيئاً عن خوشنان. لكنهم يذكرون اليهودية باعتبارها أهمّ المراكز الحضريّة في منطقة أصفهان. وهم يصفون المدينة (الموقع المسور) بمسجد الجمعة القائم وسط البازار المزدهر الذي تأتيه السلع من القريب والبعيد (Le Stsamge, 1966, 202-207).

ثانياً-2 التطورات المدنية حتى القرن السادس عشر

1-2-2-1 المسجد الجامع والميدان القديم: نبقى في معلوماتنا عن أصفهان في العموميات حتى القرن الثامن الميلادي. لكن منذ انتقال العمران إلى اليهودية (الحي القديم في أصفهان الوسيطة) تزداد المعلومات وتتكتف. فبالإضافة إلى معلومات المصادر، نملك الآن الخطة الأولى للمدينة، وبعض بقايا المباني. إن التحليل الجغرافي لما بين أيدينا يشير إلى وجود

ثلاث خطط متعاقبة للمدينة نعرفها من اتجاهات مراكزها الأساسية. أما الخطة الأولى المتميزة بالشوارع الممتدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ومن الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي؛ فنجد فيها مسجد الجمعة والميدان الكبير (وهو ساحة واسعة تقع جنوب شرق الجامع). أما المباني الخاصة من الحقبة الإسلامية المبكرة فتمتد إلى الجنوب الغربي، والجنوب، والشمال الغربي من الجامع. وكما سبق القول؛ فإن مسجد الجمعة بُدئ ببنائه في العام 773م. ولا شيء باقٍ من تلك الحقبة الواصلة إلى القرن العاشر فوق الأرض اليوم. أما الأسوار الموجودة اليوم حول ساحة الجامع فقد بُنيت في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي. ففي تلك الفترة، شبَّ حريق هائل اضطرت معه السلطات إلى بناء جامع جديد. وقد تكون الجامع من أربع إيواناتٍ صارت ممراً للجوامع في إيران. أما الميدان القديم، فهو العنصر الرئيسي الآخر في أصفهان الوسيطة. وتغطي ذلك الميدان اليوم دكاكين ومحلات للسلع؛ لكن شكله القديم يمكن استعادته. فقد وقعت على حواشيه قديماً المساجد والمدارس والقصور والسوق الكبير ومبنى لموسيقى البلاط. وكان يمكن رؤية تلك المواطن كلها حتى القرن السابع عشر، وإن تكن في حالة سيئة (Chardin, 1711, 146). وقد كان الميدان في الأصل مخصصاً لسباقات الخيول وللعب البولو. والميدان كلمة إيرانية الأصل ولها مرادفٌ في مفرد أسبرس (Heszfeld, 1968).

وتذكر المصادر العربية ذلك الميدان بصيغة مزدوجة: ميدان أسفريس (ياقوت 4/713). وتوجد الميادين في ضواحي المدن الإيرانية والعراقية. وقد كانت الميادين مواطناً للأسواق والسلع، لأن السباقات ما كانت تجري كل يوم. وقد كان ميدان أصفهان حتى القرن الثامن على حواشي المدينة، ولذلك فلا شيء يمنع من إعادته إلى حقبة ما قبل الإسلام. وبسبب بناء خوشنان ما عاد الميدان في ضواحي المدينة، بل صار في مركزها بين خوشنان واليهودية. ثم جاء البناء الكثيف في القرن الحادي عشر وبعده، فصار الميدان في كل المدن الإيرانية في وسط الحاضرة. وهذا ما لاحظته الرحالة الألماني Engelbest Kaempfes الذي زار أصفهان عام 1684م. وفي القرن الحادي عشر، عندما صارت أصفهان عاصمة للإمبراطورية السلجوقية، اكتسب الميدان وظيفةً ثالثة بالإضافة للرياضة والتسوق، إذ صار أيضاً مكاناً للقصر الملكي، وللمراكز الإدارية. وهكذا بقي الميدان مركزاً للمدينة حتى القرن السادس عشر. ثم بُني ميدانٌ جديدٌ على طراز الميدان القديم. وصار الميدان الجديد المركز الإداري للمدينة، وسوقاً للسلع الثمينة. بيد أن الميدان القديم ظل مركزاً ثانياً للحاضرة الكبيرة.

2-2-2: المحاور الرئيسية للتواصل الحضري: كانت تلك هي المحاور الرئيسية لأصفهان في العصور الوسطى الإسلامية. وفي القرن العاشر الميلادي أقيمت بوابات المدينة على محاورها الرئيسية. ويمكن تخمين مواقع تلك البوابات دونما تأكيدٍ من ذلك. وينبغي أن لا يفاجئنا ذلك؛ لأن البوابات فقدت وظيفتها منذ القرن السابع عشر. فقد نمت المدينة وتمددت خارج الأسوار. وقد تعود الصفويون أن لا يدافعوا عن مدُنهم من على أسوارها وبواباتها بل على الحدود القاصية مثل آسيا الوسطى وغرب العراق وشرق

الأناضول. وما من شك في أنّ أصفهان الساسانية والعصور الإسلامية المبكرة كانت تملك شكلاً شبه دائري. وكانت للمدينة حتى القرن السابع عشر محاور أربعة تقوم علي طولها الدكاكين ومواطن الحرف، التي تشكل بازار الحاضرة. وليس هناك ما يدعو للشك في أنّ تلك الصيغة العمرانية تعود لعصور ما قبل الإسلام. وعلى تلك الجادات الطويلة بُنيت الأسواق الممتدة منذ القرن العاشر (ناصر خسرو، 122). وما تزال الأجزاء الشرقية، والشمال شرقية ظاهرة جزئياً. أما الجادة الممتدة من الباب الغربي للمدينة باتجاه الشمال الشرقي، فقد صارت منذ العام 1600م جزءاً من المحور الرئيسي للبازار. وهناك بازارٌ آخر كان موجوداً شرق الميدان القديم. وفي الجانب الشمال شرقي من الميدان القديم، هناك معالمٌ لبازارٍ قديم يمكن تمييزها على خريطةٍ وُضعت لرضا شاه عام 1924. ويمكن القول إنها القيسارية القديمة التي لاحظها (Chardin 146) في القرن السابع عشر. ولا يمكن اليوم تمييز شارع يعود من الميدان القديم باتجاه الجنوب الشرقي. وتشير المصادر الأدبية إلى وجود عددٍ من المباني الدينية في المدينة الإسلامية الحديثة (وبخاصة المدارس)، ودور واسعة مع بساتين (ما فروخي، 83، وياقوت 1/677). وهذا الاستعمال الكثيف للأجزاء الشرقية من المدينة، ما اقتضت ضرورة وجود محورٍ بين القصر والميدان القديم في العصور الوسطى.

إنّ التطورات السياسية في إيران بعد سقوط الإمبراطورية السلجوقية، في أواسط القرن الثاني عشر، حرمت أصفهان من وظيفتها باعتبارها عاصمة كبرى. وفي العام 1244 استولى المغول على المدينة. ويشير العام 1387م إلى نهاية أمجاد المدينة استمرت ثمانمائة عام في العصور الإسلامية. ففي ذلك العام احتل تيمورلنك المدينة، وسمح لجنوده بنهبها وتخریبها، وبذلك فقدت المدينة أعداداً كبيرة من سكانها. وفي العام 1414م حدث الشيء نفسه. ونملك من العام 1474م تقريراً يقول إنّ عدد سكان أصفهان ما كان يزيد على الخمسين ألفاً.

3-2 التطورات حتى العام 1700م

1-3-2: الشاه عباس الأول: ميدان الشاه: خلال صعود الصفويين في مطلع القرن السادس عشر، اهتم اثنان من الشاهات الأوائل بالبناء في أصفهان: إسماعيل (1502-1524م)، وطهماسب (1524-1576م). وقد عمل الرجلان على وضع مبانيهما في سياق خطة أصفهان الوسيطة. وقد كان ههما إعادة بناء المنطقة المحيطة بالميدان القديم. وهناك بنوا ما لا يقل عن خمسة مباني، كما بنوا مسجدين ومدرسة وحمّاماً على طول الشارع الممتد من الميدان القديم وباتجاه الجنوب الغربي (Gaube 1979, 82f). في العام 1597م قرر الشاه عباس الأول (الذي وصل للعرش عام 1587م) أن ينقل عاصمته من قزوین في شمال غرب إيران، إلى أصفهان. وقد أدى هذا القرار إلى إيصال أصفهان إلى ذروة تطورها خلال قرون، وجعل منها مدينة عالمية يلتقي فيها السفراء والتجار من أوروبا وإلى الشرق الأقصى خلال وقتٍ ويوسّعوها على أساس خطةٍ جديدةٍ وعلى خطوط لا تشبه إلا خطوط أصفهان الإسلامية المبكرة خلال القرن الثامن الميلادي. كان الشاهات

والحكام السابقون، الذين اتخذوا من أصفهان مقراً لهم يميلون لسكنى المدينة القديمة، وإدارة الدولة من هناك. أما عباس الأول فقد قرر الذهاب مع بلاطه إلى جنوب غرب أصفهان المعاصرة. وقد سلك في ذلك مسلك السلاجقة ببناء قصور على النهر (ما فروخي، 53-56). ومضى عباس قُدماً ببناء مركز اقتصادي على حاشية أصفهان القرن السادس عشر. وبذلك دفع نحو تطوير المدينة باتجاهات جديدة. كانت نواة خطة عباس لأصفهان الجديدة بناء ميدان كالعادة، تأتلف حوله الوظائف الأهم للعاصمة في الإدارة والدين والثقافة والأسواق. بيد أن ذلك تضمن فيما تضمن إعادة تشكيل الميدان القديم بخطة جديدة. فحلف القناطر التي تحيط بالميدان من كل ناحية، وبخاصة لجهات الشرق والغرب والجنوب، انتشرت الدكاكين وبيوت الحرف. وفي الطرف الشمالي قامت مرابع ومقاهي القهوة، التي كانت طوايقها العليا تستعمل فنادق وحمامات. وفي أماكن أربعة بالجنوب والشمال والشرق والغرب تنقطع تلك الاستمرارية المتميزة بالقناطر، لينفتح المجال في الجنوب على مسجد الشاه الذي سُمي أيام الصفويين مسجد الجمعة الجديدة وفي شرق الميدان تظهر من جديد قباب مسجد آخر هو مسجد لطف الله.

2-3-2 القصور الملكية: في مواجهة مسجد لطف الله، وعلى الجانب الغربي من الميدان، يبدو علي قبو (الباب العالي)، وهو قصر الاستقبال لعباس الأول وخلفائه. وفي القرن السابع عشر كان "علي قبو" المدخل لسلسلة المباني الملكية والتي كانت تجاور الميدان من الغرب. وهي تمتد إلى الغرب موازية لجادة جهار باغ. وفي تلك القصور تقع مقصورات الحرية حيث عاشت أسر الشاهات ونسائهم، وتنتشر أمامها الحدائق والبساتين الداخلية، والمطابخ والمخازن وبيوت الحرف التي بناها عباس وخلفاؤه. وإلى الغرب والجنوب من القصر الملكي، وعلى جانبي جهار باغ كما على النهر تقوم الدور التي يسكنها أهل البلاط، والتي أمر عباس الأول ببنائها في تلك الجهات. أما جادة جهار باغ والتي تخترق حي المباني الرسمية فإنها تؤدي إلى أحد أجمل الجسور في العالم: جسر علي وردعي خان. وعلي وردعي خان مهندس الجسر - كان أحد أقرب مساعدي عباس الأول. وتستمر الجادة بعد الجسر لتصل إلى قصر ريفي ضخم هو هزار جريب. وحوالي العام 1700م بنى شاه سلطان حسين، آخر ملوك الأسرة الصفوية قصراً كبيراً آخر إلى الغرب من هزار جريب وسط حديقة شاسعة هو المعروف باسم فرح آباد. وقد اختفت هاتان المجموعتان من المباني (Beaudouin 1933, 1-47). وقد أمر الشاه عباس الأول ببناء حاضرة جلفاه الجديدة إلى الجنوب من نهر زيانده رود. وقد أسكن هناك أرمناً من جلفاه، ومن أجزاء أخرى من أرمينيا. ويبدو أن عباساً نقل هؤلاء لأسباب استراتيجية واقتصادية. فقد أراد استحداث حزام من الأرض (البياب في شمال غرب إمبراطوريته ليحميها من العثمانيين. لكن عباساً كان واعياً أيضاً بأهمية المهارات الصناعية والتجارية للأرمن، وأراد منهم الإسهام في الحيوية الاقتصادية للمدينة.

2-3-3 البازار الواقع شمال الميدان الجديد: أما البازار الواقع شمال الميدان الجديد فإنه تتلاقى من على جانبيه من الناحية الجنوبية المدينة الصفوية والأخرى السابقة على العهد

الصفوي (Gaube-Wirth 1978). والباب الكبير للبازار هذا يبدو مشابهاً لباب صمن الجامع المقابل له في النهاية الجنوبية للميدان. وعند الدخول من الباب يشاهد الداخل سوقاً من طبقتين هو القيسارية. وقد كان هذا السوق في القرن السابع عشر حكراً على الملك، بما فيه من دورٍ للصناعة والحرف. ونقوم في وسط الشارع قبة ضخمة. وإلى جانب القبة من اليمين تقوم دار السكّة الملكية. أمّا إلى اليسار فإن المتجول يدخل محلة الشاه المُعدّة للقوافل. وتتضمن المحلة المسقوفة والأكثر اتساعاً في المدينة (140 غرفة). وفي نهاية القرن السابع عشر كان يستخدم تلك الغرف تجاراً من تبريز وقزوین وأردبیل والهند. أمّا في الطبقة العليا فقد كانت هناك حوانيت للصاغة وتجار الذهب ومحترفاتهم. والي شمال الخانات، تقوم محلة أخرى ممثلة، هي الآن في وضع أسوأ من المحلة الأولى. أما المساحة في شرق المحلتين فتتقسم إلى مربّعات تتخللها ممرات تتقاطع تحت قبابٍ عالية: جهاز سوس.

وقد بُنيت دُورٌ وأصلحت أخرى منذ أيام الصفويين، لكنّ الخطة الأصلية منذ أيام عباس الأول ما تزال واضحة. وتتضمن تلك الخطة شرلمان متوازيان يجريان من الشمال إلى الجنوب، وتتخللها ثلاثة منافذ من الشرق والغرب. وإلى شمال البازار الذي كان معروفاً في القرن السابع عشر باسم القيسارية أو القيصرية، كان هناك مستشفى وإلى جانبه مقرّ آخر للقوافل والذي أقامه عباس الأول ليؤمّن من طريقه دخلاً للمستشفى. وقد زال المبنى الآن. وأبعد نحو الشمال بنى جرخيباشي-أحد أمراء عباس الأول- مسجداً ومبنى قوافل أيضاً. وقد بُني الأثران على نفس نهج الشارعين، وهو النهج الذي يعود للعصور الوسطى المبكرة.

ثالثاً: هراة والمدينة الإيرانية الشرقية

1-3 هراة القرن التاسع عشر: تُعتبر هراة أكبر مدن أفغانستان الغربية. وهي تقوم وسط واحةٍ على نهرٍ، ومن حولها قرى كثيرة عامرة. وبسبب موقعها الجغرافي فقد شكّلت مدخلاً ملائماً إلى الهند. وقد مرّ بها الإسكندر الأكبر، كما مرت بها التجارة بين الهند وآسيا الوسطى والشرق الأوسط حتى وقتٍ قريب. ومع أنّ تاريخ هراة يتضمن فتراتٍ من الصعود والهبوط؛ فإنه لم يُصَبَّها ما أصاب المدن الإيرانية الأخرى: أن تُدمّر دون أن يُعاد بناؤها، أو أن يهجرها سكانها لسببٍ أو لآخر. ولأننا نملك أوصافاً للمدينة من القرن التاسع عشر وبدايات العشرين؛ فإننا نستطيع أن نكوّن فكرة واضحة عمّا كانته المدينة قبل مائة عام. بل إننا نملك خرائط المدينة، وأكثرها دقة تلك التي رسمها ضابط ألماني هو أوسكار فون بيدرماير عام 1924؛ وكان قد قاد كتيبة عسكرية صغيرة إلى أفغانستان 1916/1917. ومن خريطة بيدرماير نستطيع أن نتبيّن أنّ المدينة كانت مدوّرة تقريباً. وتمتد حوالي الـ1500م من الشرق إلى الغرب، و الـ1600م من الشمال إلى الجنوب. وكان يحيطها سورٌ أمامه خندق عميق يدور حول المدينة. وفي السور خمس بوابات. وهناك أربعة شوارع تمتد من السور لتتلاقى في وسط المدينة تحت قبة كبيرة: جهازبو. وتتسع القبة إلى ما بين 12 و 15 قدماً وتحتضن بازار المدينة. أما محلة القوافل فتقع إلى جانب

الجهار سو وإلى الجنوب منه. ولإمداد السوق بالمياه، فقد كانت هناك خزانات ضخمة تغطيها قبابٌ عالية.

وتقع قلعة المدينة في غرب الحي الشمالي إلى جانب السور. وفي تلك الجهة يقوم قصرٌ متوسط الحجم. وفي زمن السلم كان حاكم المدينة يقيم في قصرٍ إلى جانب المسجد الجامع وليس في القلعة. وإلى جانب القصر كانت هناك إسطبلاتٌ ضخمة، ومركز للحرف، وثكنات. وفي شمال شرق المدينة القديمة يقوم المسجد الجامع. وقد أعيد بناء الجامع في القرن الخامس عشر، حيث اتخذ شكله المستمر حتى اليوم.

وتشغل الأحياء السكنية أكثر أجزاء المدينة القديمة. وتؤمن الدخول إلى مواطن السكن الشوارع الأربعة الرئيسية، كما إلى البازار. وضمن الأحياء السكنية تقوم عدة مبانٍ دينية الوظائف والهندسة: المساجد والزيارات (المزارات). وبدون استثناء تقوم الجوامع الكبيرة على أطراف الأحياء. أمّا المزارات فهي أضرحة أولياء حقيقيين أو مُفترضين. وهي كثيرة داخل المدينة وخارجها. ففي كتاب مطبوع عام 1892م: رسالة في مزارات هراة، هناك 300 مزار يجري تحديدها ووصفها. ولا- أعرف مدينة تتضمن هذا العدد من أماكن الزيارة.

2-3 هراة في العصور الوسطى المبكرة: عندما نطالع المصادر الوسيطة عن المدينة، نجد أنها ليست صالحة لتلك الفترة فقط، بل هي صالحة للقرن التاسع عشر أيضاً. وأفضل الأوصاف للمدينة في القرن العاشر موجودة في مصدرين رئيسيين: الإسطخري (حوالي العام 951م: ص 149-151) وابن حوقل (حوالي العام 977م، ص 366). ونستطيع تبين صورة هراة في القرن العاشر من المصدرين السالفين الذكر على النحو التالي: يتكون السور، مثل المباني الأخرى من أحجار طينية، وهو يحيط بالمدينة. ويبلغ طوله حوالي الأربعمائة كيلومتر. ويقع أمام السور خندق عميق. وللسور أربع بوابات يُدخل منها إلى المدينة، ويبدأ من كل بوابة طريق إلى داخل المدينة، كما لمغادرتها. ثم إن البوابة يبدأ بداخلها بازارٌ يقود إلى وسط المدينة. أمّا قلعة المدينة فتقع داخل السور ولها أربع بوابات أيضاً تحمل الاسم نفسه مثل بوابات هراة. وما يزال الجامع الكبير للمدينة في موقعه القديم. وفي مطلع القرن كانت المباني الإدارية وقصر الحاكم والإسطبلات والمخازن ودور الحرف، تقوم كلها باتجاه قبلة الجامع الكبير. ويذكر المؤرخون القدامى أنه في العصور الوسطى كان السجن يقع بجوار الجامع. وما كانت السجون قديماً تُبنى عشوائياً، بل تكون على مقربة من مقر الحاكم، وأماكن تجمع جنوده.

3-3 خطة المدينة في مصادر القرن الخامس عشر: يذكر الإسفزازي الذي كتب تاريخاً لهراة في العام 1492 أن شكل وسط المدينة بقي على ما كان عليه منذ القرن العاشر الميلادي. ويبدأ الإسفزازي تاريخه بمقدمة جغرافية عن هراة يمكن على أساس منها معرفة الخطط الأصلية لها (إسفزازي، صص 77-79). فقد كان يحيط المدينة بحسبه يبلغ 7400 قدم هراتي.

أمّا المسافة بين البوابتين المتقابلتين فقد بلغت 1900 قدم، والتي تثبت أنّ شكل المدينة كان دائرياً. وهناك خندقٌ يحيط بالسور. وفي وسط الجهات الأربع كانت هناك بوابات. وتتبع من كلٍ من البوابات بازار يصل إلى وسط المدينة المعروف باسم جهار-سو. وقد بُني البازار الشمالي من الطوب المشوي. ويدعوننا ذلك للترجيح إلى أنّ الأسواق الأخرى كانت مبنية من الطوب الرملي. ويتضمن كل من البازارات خاناً للقوافل. أما المسجد الجامع فقد كان بين البوابات الشرقية والشمال شرقية. ويذكر الإسفزازي أنه في حقبة ما قبل التيموريين أضاف ملك الأسرة الكرّتية معز الدين (1330-1370م) سوراً جديداً حول المدينة تبلغ مساحته ستة كيلومترات مربعة. وما أعاد تيمور بناءً ذلك السور بعد أن دمره لأنه اعتبر أنّ الدفاع عنه غير ممكن.

إنّ هذه المعلومات كلّها تعني أنّ الخطة الداخلية لمدينة هراة- بما في ذلك المباني الرئيسية مثل البازار والجامع الكبير والمباني الإدارية والقلعة- لم تتغير مواقعها منذ القرن العاشر. ويميّز هذا الأمر هراة عن المدن الإيرانية/ العراقية التي شهدت هندستها تغييرات كبرى خلال القرون. والشكل المدوّر للمدينة هو السائد في مدن شرق إيران، في حين يختلف في الغرب في ما وراء الصحراوين.

3-4 مَدُنْ شَرْقِ إِيْرَانِ

3-4-1: بَمَ: نَعْرِفُ مِنْ بَيْنِ الْمَدَنِ الْإِيْرَانِيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ الْمَدِينَتَيْنِ السَّاسَانِيَتَيْنِ: فيروز آباد (أردشير خرة) عاصمة أردشير الأول (224-241م)، وبيشاپور العاصمة الأخرى التي بناها ابنه سابور الأول (241-272م)، ولكلٍ من المدينتين خطة مختلفة. أما فيروز آباد (Girshmom, 1962) فهي مدينة مدوّرة، وأمّا بيشابور (غير شمان، 1962، ص138) فهي مدينة مستطيلة مع شوارع داخلية مستقيمة. وتجد المدينة الساسانية المدوّرة سالفها في المدن الباركية (أندريه، 1908) مثل مدينة الحضر في العراق اليوم؛ والمدن الشرق أوسطية القديمة. والعلة في بناء بيشابور على هذا النحو أنّ بُنائها كانوا من أسرى الحرب الرومان، وهكذا فخطتها خطة أجنبية ما تكررت من بعد في غرب إيران. أما الشكل المدوّر للمدينة فقد عاش إلى ما بعد الساسانيين. والمثل الأبرز على ذلك مدينة بغداد والتي بناها الخليفة العباسي المنصور (754-775، كرزويل 1958، 161-182). وكذلك الخطط الأولى لمدينتي أصفهان وجي كانت دائرية أو مدوّرة (غاوبه 1979، ص67-72).

لكننا إذا التفتنا لمدن شرق إيران؛ فإننا نجد خطّاً مختلفاً للمدن؛ من مثل المقاطعة الإيرانية كرمان بشرق فارس، كما نجد أبعد نحو الشرق مدينة بَمَ الصّغيرة. وفي العصور الوسطى كانت بَمَ مشهورة بصناعة المنسوجات فيها. وقد كانت مدينة مزدهرة لعدة أسباب وليس بسبب صناعة النسيج فقط. وتحتل وسط (المدينة) قلعة ضخمة. وتحميها أسوار لها أربع بوابات. أمّا رَبَضُ (رَبْدُ) المدينة فيقع خارجها، وهي غاصة بأشجار النخيل وبساتينه (غاوبه 1979، ص112). وفي ثلاثينيات القرن العشرين هُجرت المدينة القديمة. وقد انتقل السكان إلى المدينة الجديدة، فتحوّلت المدينة القديمة إلى ما يشبه المتحف.

والمدينة الداخلية التي ما تزال ظاهرة مدوّرة الشكل؛ أمّا القلعة فتقع في شمالها بداخل السور. وقد امتدت المدينة في ما بعد نحو الشرق، ثم أضيف إليها قسمٌ بالشمال الغربي. وهكذا فإنّ مدينة بَمّ تشكّل نموذجاً لمدن شرق إيران المدوّرة.

2-4-3 زرنج: هي إحدى المدن المشهورة بشرق إيران، وهي العاصمة القديمة لإقليم سجستان، وتقع شرقي بَمّ على مقربةٍ من الحدود الإيرانية/ الأفغانية، وهي بأفغانستان الآن. واسم سيشان مأخوذ من سَكستان، وهو شعبٌ من آسيا الوسطى هاجر إلى المنطقة في القرن الأول قبل الميلاد. وكانت زرنج مدينةً مهمة أيام الساسانيين. ثم في القرنين التاسع والعاشر للميلاد صارت عاصمة للصفاربيين (861-1003م) الذين سيطروا على إيران تقريباً في سنوات دولتهم الأولى. وفي العام 1383م مرّ تيمور زرنج وما أعيد بناؤها من بعد.

وفي صورة من الجوّ لزرنج تبدو المدينة مكوّنةً من قسمين، القسم الأول مربّع مع بقايا للقلعة إلى جانب زاويةٍ من زوايا السور. ويبدو أنّ القسم المربّع هذا هو المدينة الداخلية القديمة. وبحسب ابن حوقل والإصطخري، اللذين يقدّمان أفضل وصفٍ لزرنج في القرن العاشر (غاوبه 1991، ص 208-210) فقد كانت لزرنج خمس بواباتٍ حديدية. وإلى الجانب باتجاه فارس (غرباً) هناك بابان: الباب القديم والباب الجديد. أما البوابات الثلاث الباقية فتحتل بقية جهات السور. ولا يسمَحُ هذا التكوين إلا بتفسيرٍ واحد: مدينة زرنج كانت تملك في الأصل أربع بواباتٍ تحتل جهات المحيط الأربعة. وقد امتدت المدينة إلى الجنوب من خلال رَبَذ. وقبل القرن العاشر كانت المدينة قد أحيطت بسورٍ دائري.

4-4-3 أصول خطط مدن شرق إيران: كيف تكونت خطط المدن الداخلية في هراة وبم وزرنج، وإلى أية أصولٍ يكون علينا إرجاعها؟ أول ما يتجه التفكير إلى المدن الإغريقية - الرومانية. والملاحظ أنّ خطط المدن المتأثرة بهذا النموذج تقع إلى الغرب من إيران وعلى مشارف الإسلام، من مثل عنجر في لبنان والعقبة في الأردن. ولكلٍ من هاتين المدينتين شكل مستطيل، وشوارع تبدأ من الأشور وبواباتها الأربعة، لتتقاطع في وسط المدينة على شكل صليب (Wirth 39/2000-44).

ولا نجد في إيران خططاً على هذا الشكل. لكن يمكن أن نجد في إيران مستقرات صغيرة مع خطط داخلية مربعة أو مستطيلة، وهي مستقرات القلاع. بيد أنّ التشابه في هذه القلاع مع داخل هراة هو تشابهٌ عارض. ويمكن مقارنتها بالمستقرات من نفس النوع في آسيا الوسطى. والمعروف أنّ قرى القلاع معروفة منذ القديم في هذه النواحي (1966 Nerarik). وبينما لا نجد شبيهاً في إيران بين قرى القلاع وبين المدن؛ فإننا نجد خطط مدنٍ تشبه قرى القلاع في مثل مدينة هراة. وهذا النموذج يسري على بعض المدن ذات التأسيس البارتي مثل مدينة مرو. فمن جهة تشبه مرو هراة بالمربع الداخلي والسور، والطرق الأربعة والبوابات الأربعة، والقلعة الواقعة في شمال المدينة داخل السور. وهكذا فإنّ نموذج مرو ما قبل الإسلام ومرو العصور الوسطى يُشبه نموذج هراة. وبذلك يمكن

الحديث عن نموذج خطط مدن شرق إيران، والتي تمتد من جنوب أطراف صحراء لوط وشرق تلك الصحراء وشرق كوبر إلى مدن آسيا الوسطى، ومرو وبخارى نموذجان بارزان على ذلك.

ونعود بعد هذا التمهيد إلى السؤال: هل تعود أصول خطط زرنج وبم وهراة إلى نموذج آسيا الوسطى، أو إلى نموذج آخر؟ هراة هي النموذج الصافي لهذا النوع من المدن. وهراة تقع بين منطقتين تمثلان نموذجين مختلفين: الهند وجنوب شرق آسيا ووسط آسيا، أو الصين إلى الشمال الشرقي. ولا نستطيع نفي التأثير الهندي مطلقاً، لأنّ الهند وإيران بينهما تواصل منذ أقدم العصور، وازداد ترابطهما في الحقبة الساسانية. ولذلك فإنّ البحث في المجال الهندي الغني بالرسائل حول الهندسة والعمارة يمكن أن يكون مفيداً. ففي رسالة الـ (Manarara(Acharya1934) التي تعنى بالعمارة، والتي تعود للقرن الأول قبل الميلاد نجد النماذج التالية لخطط المدن: "المدينة الإيرانية المثالية تتمدد باتجاهات الجهات الرئيسية الأربعة. وكل مدينة مُحاطة بسور، بداخله قلعة. وخارج السور هناك خندق محفور. وبشكل عام هناك أربع بوابات، كل واحدة منها في وسط إحدى جهات السور. وبجوار الأسوار الداخلية تمتد شوارع واسعة. وبالإضافة لذلك هناك شارعان عريضان، يربطان بوابات المدينة المتقابلة. ويتقاطع الشارعان في وسط المدينة حيث يقوم معبد أو قاعة لسكان المدينة لأداء عباداتهم. ثم إنّ المدينة تنقسم إلى أربعة أحياء، كل واحد منها تفصله عن الآخر ممرات. وعلى أطراف الشارعين الرئيسيين، اللذين يتقاطعان في وسط المدينة، تنتشر مباني كثيرة طوابقها الأرضية محلات تجارية. أما بقية المدينة فتتكوّن من أحياء للمعيشة (Shukla, 1938).

إنّ خطة مدينة هراة تتطابق مع مبادئ تخطيط المدينة الظاهرة في هذا الكتاب في سبع من ثماني خصائص. ولذلك فقد تكون مدينة هراة مبنية في الأصل على أساس خطة أصلها هندي، وقد امتدت عبر أفغانستان، ووصلت إلى آسيا الوسطى. لكنّ هذا احتمال واحد من عدة احتمالات. لكنّ اتجاهات التأثير ربما امتدت باتجاه المعاكس أيضاً: من آسيا الوسطى أو من الصين إلى شرق إيران.

لقد ظهرت دراسة ضخمة حديثاً تتضمن استعراضاً شاملاً لأصول وتطورات المدينة الصينية، والطابع الفلسفية والدينية لخطط تلك المدن. وفي مقدمة ذلك الكتاب يقول المؤلف: "بالتأكيد، ليست هناك مفاجأة أن نجد مفهوم العالم (البدائي) ونظامه الفلكي التناسق، واقعاً في أصول تصور المستقرات الحضارية في العالم. العالم المملوء بالمجتمعات المدنية. ففي الصين يجري التعبير عن ذلك من خلال نموذج (المربع السحري). وهو معروف جيداً في المندالا البوذية، التي تتكون من تسعة مربعات متداخلة. والمربع السحري هذا يُسمّى في الصينية: نموذج المجال المثالي للمجال المقدس بمربعاته التسعة. وقد استخدم "المربع السحري" من جانب البطل الثقافي الأسطوري، "يي الكبير"، مؤسس الأسرة الأولى (كسيا)، باعتباره الشكل المثالي لتقسيم الصين إلى تسع مقاطعات. كما استخدم من جانب النبيل "زو" باعتباره الأصل للمدينة السحرية لأسرة زو في نهاية

الألف الثاني ق.م. وحتى القرن العشرين. وهو أيضاً أصل الحقل المقدس أو المجال المقدس، حيث كان الإمبراطور باعتباره "البناء الأول" لشعبه، والذي يتجلى في بداية الربيع من كل عام.. (Sching1996). في الصفحات الأربعمئة للكتاب، يحاول الكاتب أن يفرض مفهوم "المربع السحري" على كل المدن الصينية من كل العصور ومن كل أنحاء الصين. ويكون عليّ أن أعترف، أنني ما استطعتُ دائماً تتبّع حُججه وتصوراته ورسومه. بيد أن أمراً واحداً يستحق التأكيد هنا. مفهوم مدينة شرق إيران، وتصور المدينة الصينية المشروح سابقاً يشتركان في خصيصتين: القسمة الهندسية لمجالات المدينة، والأبعاد الهندسية لأسوارها. فالشكل الرئيسي في التنظيم الداخلي لمدينة شرق إيران، والإنقسام إلى أربعة أحياء متساوية، تخرقها شوارع رئيسية، كل ذلك ليس موجوداً في المدينة الصينية. وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للقلعة، التي هي من خصائص مدن شرق إيران، لكنها مفقودة في المدينة الصينية.

ولكي نوجز النتائج التي يمكن التوصل إليها: هناك ثلاث إمكانيات لتحديد الشكل والتنظيم الداخلي لمدن شرق إيران؛ أولاً:- تطور داخلي مستقل في تلك النواحي، وثانياً: التأثير الهندي، وثالثاً: التأثير الصيني. أما التأثير الصيني فيمكن إستبعاده إلى حد كبير. وهناك احتمال كبير أن يكون للتأثير الهندي وتطوراته آثاراً واسعة في خراسان وبكتريا، وبلاد ما وراء النهر؟ ومع أن التطور المستقل ليست عليه دلائل قوية، فلا يمكن استبعاده طبعاً. أما تنظيم المدينة المنشأة حديثاً على أسس هندسية معنية فأمرٌ ظاهرٌ ومؤكّد. وهذا واضح في مدن الشرق القديم، كما في مدن مصر القديمة. وقد فعل اليونانيون الشيء نفسه في مُدُنهم المنشأة حديثاً. لكنّ التنظيم الهندسي لا- يمكن اتخاذه دليلاً على تبعية معنية في التطور. ولذلك يكون علينا أن ننظر إلى العناصر التنظيمية في ما وراء الشكليات الهندسية. وفي الحالة التي تبحثها أعني خطي المحلات التجارية من على طرفي الشوارع الرئيسية، والتي تتقاطع في وسط المدينة. ثم البوابات في أواسط الأسوار على كل جانب من جوانب المدينة المربعة، والقلعة. والسؤال المطروح هنا هل تكون مدن شرق إيران نتيجة تطور خاص، أو أنها ظهرت وتطورت تحت التأثير الهندي؟ هذا السؤال لا يمكن الإجابة عليه فوراً بطريقة مُرضية. والذي أراه أنه لا بد من حل مشكلتين قبل إمكان الإجابة الأولى: تحديد التاريخ الدقيق لكتابة نصّ الماناسارا الهندية. فإذا كان النص أقدم من القرن الأول ق.م. فإن تأثيراً من شرق إيران وإلى آسيا الوسطى باتجاه الهند يصبح غير محتمل، كما يصبح مرجحاً أن التأثيرات من الهند باتجاه شرق إيران وآسيا الوسطى. والاحتمال الثاني هذا يصبح مرجحاً في خطة مدينة مثل مدينة هراة. لكنّ مدينة هراة الحالية يعود تخطيطها، كما نرجح إلى العصر الإسلامي الأول، وهي الخطة نفسها في الأرجح لما قبل حقبة الإسكندر، أي خطة المدينة في عهد الأخمينيين: خطة أريابا(الفارسية القديمة: هارايساوا)، هراة الحالية. وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن التطور المدني في شرق إيران هو تطورٌ داخلي.

(* أستاذ الدراسات الإيرانية في جامعة نيوبنغن / ألمانيا الاتحادية.

- Abu Nu'aim, Ahmad b. Abu Nu'aim
'Abdallah: Kitab akhbar Isbahan.
(Ed). S.Dedering Leiden 1934.
- Andrea, W: Hatra. Berlin Andrae 1908
1908/1912.
- Beaudouin, E.E: Isfahan sous les Beaudouin
grands chahs (XVIIe siecle). In: 1933
Urbanisme, II, 10 (1933), 1-47.
- Voyages en Perse et autres lieux Chardin 1711
de l'Orient. Amsterdam 1711.
- A Short Account of Early Muslim Architecture. Creswell 1958
Harmondsworth 1958.
- Fischer, K. (Ed): Nimruz, Bonn Fischer 1974
1974/1976.
- Gangler, A., Gaube H. & A. Gangler-
Petruccioli: Bukhara, The Eastern Gaube 2003
Dome of Islam, Stuttgart/London
2003.
- Gaube, H.: Iranian Cities, New York 1979
York 1979.
- Gaube, H.: Die Quellen zur Karte B VII 6: „Die Kernlander des 'Abbasidenreiches' und ihre Auswertung. In: Rollig, W. (Ed.): Von der Quelle zur Karte. Weinheim 1991, 199-216.
- Gaube, H.& E. Wirth: Der Bazar von Isfahan. Wiesbaden 1978. Gaube- Wirth
1978
- Ghirshman, R.: Bishabour. Paris Ghirshman
1956/1971. 1956
- Ghirshman, R.: Iran. Parther und Ghirshman
Sasaniden. Munchen 1962. 1962

- Gobl, R.: Sasanidische Numismatik. Braunschweig 1968. Gobl 1968
- Herzfeld, E., Walser, G. (Ed.): The Persian Empire. Wiesbaden 1968. Herzfeld 1968
- Ibn Hawqal, Abu, I-Qasim b. Hasan: Kitab surat al-ard. Beirut n.d. Ibn Hawqal
- Ibn an Nadim, Muhammad b. Abi Ya'qub: (Ed) كتاب الفهرست. G.L. Flugel. Leipzig 1871/1872. Ibn an-Nadim
- Ibn Rustah, Ahmad b. 'Umar: al-A'laq an-nafisa. (Ed.) M. de Goeje. Leiden 160. Ibn Rustah
- Izfizari, Mu'in al-Din Muhammad: Rawdat al-Jannat fi ansaf Harat. (Ed.) M. K. Imam. Tehran 1338/1960. Izfizari
- Al-Istakhri, Ibrahim b. Muhammad: كتاب مسالك الممالك. تحقيق محمد الحيني. القاهرة 1971. Istakhri
- Kaempfer, E.: Amoenitatum exoticarum politico-medicarum. Lemgo 1712. Kaempfer
- Le Strange, G.: The Lands of the Eastern Caliphate. London 1905. Le Strange 1966
- Lockart, L.: Persian Cities. London 1960. Lockart 1960
- Mafarrukhi, Mufaddal b. Sa'd: (Ed) كتاب محاسن أصفهان. J. al-Husaini. Tehran 1312/1933. Mafarrukhi
- Acharya, P.K.: Architecture of Manasara. London 1934. Acharya 1934

- .: Eransahr nach der Geographie Marquart 1921
des Ps. Moses Xorenac'i. Berlin
1901.
- Mumford, L.: The City in Mumford
History. Baltimore 1966. 1966
- Muqaddasi, Muhammad b. Muqaddasi
Ahmad: كتاب أحسن التقاسيم (Ed) M.
de Goeje. Leiden 1906.
- Nasir- I Khusrau; Abu Mu'in: Nasir-I
Safarnamah. (Ed) M. Dabirsiyaqi. Khusrau
Tehran 1344/1966.
- Nerasik, E.E.: Sel'skije Nerasik 1966
poseleniya afrigidskogo
Choresma. Moscow 1966.
- Niedermayer, O. v.: Niedermayer
Afghanistan. Leipzig 1924. 1934
- Olearius, A.: Vermehrte Olearius 1656
Moscowitische und Persische
Reisbeschreibung. Schleswig
1656.
- Pugachenkova, G.A. & L.I. Pugachenkova
Rempel: Istoriya iskusstv 1958
Uzbekistana. Moscow 1965.
- Schmidt, E.F.: Flights over Schmidt 1940
Ancient Cities of Iran. Chicago
1940.
- Schinz, A.: The Magic Square- Schinz 1996
Cities in Ancient China. Stuttgart
1996.
- Shukla, V.A.: Vastu Sastra. Shukla 1938
Chandighar. n.d.
- Tavernier, J.B.: Les six voyages Tavernier
de Jean Baptist Tavernier, en 1679
Perse et aux Indes. Paris 1679.

- Tosi, M.: The Archaeological Evidence for Protostate Structures in Eastern Iran and Central Asia at the End of the 3rd Millenium BC. In: Colloque Internationaux du C.N.R.S. No. 567: Le Plateau Iranien et L'Asie centrale des origins a la conquet Islamique. Paris 1977, 45-66. Tosi 1977
- Walker, J.: A Catalogue of the Arab-Byzantine and Post-Reform Umayyad Coins. London 1956. Walker 1956
- Weber, M.: The City. Glencoe 1958. Weber 1958
- Wirth, E.: Die orientalisch-islamische Stadt. Mainz 2000. Wirth 2000
- Yaqut, Ya'qub b. 'Abdallah: معجم البلدان. (Ed) G. Wustenfeld Leipzig 1866-1873. Yaqut